كلمة سماحة مفتي طرابلس والشمال الشيخ الدكتور مالك الشعار

في افتتاح المؤتمر الدولي الأول للوسطية في لبنان

طرابلس 11-4-2008

مفهوم مصطلح الوسطية

إن مصطلح الوسطية من الألفاظ الحادثة التي نشأت في عصرنا في حمأة الصراع المسعور الذي تشهده بلادنا اليوم فتسفك به دماء بريئة، وتنتهك حرم، وتستباح بلاد. لذلك نحن ليست عندنا مشكلة مع المصطلحات وإنما فيما تدل عليه. ولا شك أن المقصد من هذا المصطلح هو طرح التشدد الذي يظهر في عديد من المواقف سواء كانت من بعض المسلمين أو من غيرهم، وللإنصاف نقول: إن كثيرا من مواقف لتشدد التي نراها من بعض المتدينين هي ردات فعل على مواقف مقابلة موغلة في التحلل والتفلت من أحكام الدين، فالأول إفراط والثاني تفريط، وكلا الأمرين مجانب للهدي النبوي الشريف. فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط، على ما قاله الحافظ أبن كثير رحمه الله تعالى.

مفهوم اليسر والسماحة في الإسلام

وقد يتذرع المفرط بيسر الشريعة وسهولتها، فتقول: نعم، عن الله جل شأنه وضع هذه الشريعة المباركة حنيفية سمحة سهلة، حفظ فيها على الخلق قلوبهم، وحببها إليهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماحة والسهولة لدخل عليهم فيما كلفوا به ما لا تخلص به أعمالهم، الا ترى الى قوله تعالى: "واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون" فقد أخبرت الآية – كما يقول الإمام الشاطبي – أن الله حبب إلينا الإيمان بتيسيره وتسهيله، وزينه في قلوبنا بذلك، وبالوعد الصادق بالجزاء عليه.

فالتيسير صفة عامة للشريعة الإسلامية في أحكامها الأصلية، وكذا في أحكامها الطارئة عند الأعذار، فلا توج فيها مشقة غير معتادة، لأن "الشارع لم يقصد إلى التكليف بالشاق والإعنات فيه".

لكن ليس معنى اليسر والسماحة في الدين ترك العمل والتكاسل عن الطاعات والعبادات، كما ليس معنى التشديد فيه الأخذ بالأكمل فيها، كلا بل المراد الالتزام بالتوسيط فيها، بلا إفراط ولا تفريط.

نعم، هذا هو المنهج الوسط، وهو صراط الله المستقيم، فلا ميل إلى جانب الإفراط والتعمق والتشديد على النفس وعلى الآخرين، ولا إلى جانب التيسير الشديد والتساهل الذي يصل إلى حد التحلل والانسلاخ من الأحكام.

وكما نقل الإمام ابن القيم – رحمة الله تعالى – عن بعض السلف: "إن دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه".

وفي هذا الصدد أيضا كلام جميل للإمام الشاطبي حيث قال – رحمه الله تعالى – "فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الإطراف، فذاك في مقابلة واقع، أو متوقع في طرف آخر.

فطرف التشديد – وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر – يؤتي به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين. وطرف التخفيف – وعامة ما يكون في الترجي والترغيب والترخيص – يؤتي به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رايت التوسط لائحا، ومسلك الاعتدال واضحا، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعقل الذي يلجأ إليه " اهـ (الموافقات).

الوسطية منهج حياة

وقديما قالوا: إن الفضيلة وسط بين رذيلتي. وسواء اضطرد هذا القول أم لم يضطرد فإن الحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط، والناس يعانون كثيرا من الغلو الشديد والإهمال البارد.
والغلو في الدين قد ينتج عن خطأ في الفكر أو عوج في الطبع، وغالبا ما يزيغ عن الحق وينتهي بالانسلاخ عن الدين الصحيح، لذلك يقول الله تعالى لنبيه: (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبل) (المائدة: 77).

هناك من يبالغ في التعبد فينحرف يمينا بالابتداع والحماس الكاذب، وهناك من ينحرف يسارا بالإهمال المنتهي بالجحود والتمرد.

يقول الشيخ محمد عبدالله دراز: "كأنه أشار باليمين إلى طرف الإفراط والتعمق في الدين، وباليسار إلى طرف التفريط والتقصير، وكلاهما منحرف عن سواء السبيل وعن الوسط الذي لا يميل إلى احد الجانبين. ونحن لو تتبعنا أنواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات، التي أشارت إليها أحاديث افتراق الأمة على بضع وستين شعبه، أما البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التي أشارت أليها أحاديث فتح الدنيا وبسطها لهذه الأمة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم الخ. لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين"

إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شؤون الدين والدنيا جميعا، ففي مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضني ويؤثر الاعتدال المستمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لكل شيء شرة – حماسا ونشاطا – ولكل شرة فترة – برودا وعجزا – فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه".

وفي شؤون الدنيا يكره الإسلام التبذير والتقتير ويحب الإنفاق المعقول، وقد وصف الله عباد الرحمن فقال: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) "الفرقان 67".

والوسطية فضيلة تبرز في توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية، ففي العلاقة بين الرجال والنساء مثلا أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد!

وفي الناحية الاقتصادية أقر الإسلام حق الملكية الفردية، بيد أنه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام، وإنتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين.

وبذلك ضمن انتاجا غزيراً لأن الحوافز قائمة، وحفظ الجماعة من التفكك لان التواصي بالرحمة لم يدع ثغرة إلا سدها، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة.

والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها، فإن الله سائلهم عن الهدايات التي بلغتهم، هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس؟

وما من أمة إلا وهي موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) (النساء 41).

نعم، ومحمد شهيد على المسلمين إنه آخذهم بتلك التعاليم الجليلة، وسيدلي بهذه الشهادة أمام الله. كما أن المسلمين سيسألون، هل علموا كما تعلموا؟

إن الأمم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد! وهم شهداء على الأمم لأنهم حملة الرسالة العامة ومبلغو "الوسطية" التي شرحناها آنفا، وكما كان محمد أستاذا لهم فهم أساتذة لسائر شعوب الأرض!

ذلك معنى قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسوم عليكم شهيدا) (البقرة 143). والمؤسف أن الأمة المكلفة بذلك فرطت في البلاغ والتعليم! بل فرطت في العمل والتأسي بنبيها! بل لقد أصبحت اليوم ذيلاً لأحزاب الميمنة والميسرة في الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم! (من مقال للإمام محمد الغزالي رحمه الله).